ظلّ يقود درّاجته، صوب حيّ العمّال، حيث جيرانه الهنود.. حلّ الظّلام فأضاء فانوس درّاجته، وشرع يصفّر، وفي الوقت نفسه يودّ عند وصوله إلى شقّته أن يسجّل انطباعاته في رسوم جميلة. لِمَ لا يرسم لوحات تعبّر عن مشاهداته؟. غداً سيبتاع علبة ألوان زيتيّة وفرشاة وورقاً للرّسم.. لم لا أعود إلى ممارسة هوايتي القديمة، الّتي هجرتها منذ التحاقي بالعمل في هذه المحطّة؟. كان يفكّر في رسم لوحات، عن كل ما رآه.. سيرسم بحراً بأمواجه وصخوره المغسولة بالرذاذ.. سيرسم شجرة خرّوب وبركة، وعشّ عصافير، ويرسم أطفالاً يلعبون، وآثاراً بأعمدتها الرّخاميّة وتماثيلها المنزوعة الرؤوس.. في ذلك اليوم ولج بيته تحت جُنح الظّلام، كان مرهقاً، لم يتناول عشاءه، بل ارتدى منامته، واندسّ في الفراش.. وأخلد إلى نوم عميق..

طرابلس (الجماهيريّة)

نافرة وليست بيضاء ولا حزينة

أحمد خريس

ملقىً كان في زاوية الشّرفة، رأسه في انحناءة مستسلمة ملتمّة، معفّرٌ برمل الحائط المتآكل. منقاره أصفر ذابلٌ، والجسم منتهك، رطباً لمّا يزل. الدّم السّائل على البلاط كثيف قانٍ؛ وقد بدأ يجفّ تماماً. الرّيش ـ حين تلمّسته ـ محترق أسفل البطن الهضيم ومختلط بالحمرة المتجلّطة الغائرة. رفعته بيدي، العينان تبوحان ـ في التماع الضّوء ـ بشيءٍ لزج وعميق رغم البرودة وهمود الجسد كأنّما تريانني، وأنا واقف بالمنامة، سروالي متهدّل قليلاً، حافٍ، نصف مشدوه، وحولي أصص الزّرع الفخّاريّة مملوءة بالتّراب المبلّل، بعضها مشقّق فيه سطحُ التّراب، أو نابت في غير اتّساق، رقيق السّاق وله ورقتان وحيدتان زاهيتا الاخضرار. أختي الصّغيرة ـ الّتي تكبرني بسبع سنين ـ تناديني من المطبخ، عيناها الحائرتان دوماً سوداوان بغير هوادة. الشّعر الأسود ـ أيضاً ـ لامع وضافٍ (تكره أن يلمسه أحد وكأنّه مقدّس) وجنتاها مرتفعتان بامتلاءٍ أليف، والوجه معجون ببياض لم يتوفّر لباقي إخوتي، تُطلّ من خلف الباب: «مسكتك... إيش بتعمل؟» بهمهمة ونِصْف ضحكة، وبجدٍّ مصطنع: «تعال يلّه... الأكل محطوط». عيناي متعلّقتان بالفضاء، بسرب طيور البحر المارق، بالأزرق المهتاج بحمرة ما قبل الغروب. أنحني على الدرابزين، وأنظر إلى أسفل. الحوش ببلاطه الحائل اللّون رماديّ قليلاً بانمحاء الضّوء الواصل إليه، معتم في الزّوايا. أُكرِّر النّظر إلى أعلى مرتكناً على قضيب الدرابزين الأسود. ترمق عيناي في صعودهما ألواح «الزّينكو» تلمع فيما تبقّى من ضوء النّهار. والنّخيل في الوراء أخضر كابٍ (لكم سأتخيّل أنّي أصعده مرّة أخرى، وأرتمي على الرّمل الطّريّ تحته وأرى الشّمس تخالسني من بين سعفاته). في الدّاخل... المطبخ معتم قليلاً، الكؤوس والأواني مجلوّة ويقطر منها الماء. رائحة الأكل المنبعثة من الفرن الكهربائي مختلطة برائحة العجين المختمر الّذي تُرك ليرتاح وقتاً قبل خبيزه. النمليّة المسودّة الوطيئة ذات الضلفتين الّتي أحتفظ فيها بخيوط الصّيد والسّنانير والأثقال الرّصاصيّة... (سأذكر حبّي الشّديد للصّيد، توقي الأزليّ للبحر، شوقي لحجارته الخضراء بطحلبها الوفير، رائحته الّتي لا تحبّها أمّي في المساءات الحارّة الرّطيبة). أخي الكبير في جلسته اليوميّة بعد نهار العمل الشاقّ والطّويل، يتغدّى ويتعشّى معاً، وربّما كان التأخّر البسيط في تسخين الطّعام سبباً كافياً لينام في مكانه خاوي المعدة. أنا الوحيد المدعوّ إلى مشاركته، لأنّي الصّغير ولأنّي ـ كما قالت أمّي ـ مشغول طول النّهار عن الأكل. في الغرفة المجاورة ـ ودون أن أذهب لأرى ـ أعرف أنّ أخي الأوسط لابدّ جالس على كرسيّه الأثير في الزّاوية. السّتائر مسدلة عن عمد، والضّوء الشّاحب القليل يتسرّب من فرجة الباب. لا يضيء النيون، أو يقلب الأسطوانة الّتي هدأت، أو يستطيع قراءة المزيد من الصّفحة المفتوحة في كتابه، أخي الأوسط الّذي عاد من بلاد الشّمال منذ مدّة قريبة جالس يفكّر ويدخّن ويشرب قهوته باردة (سيقول لي بعد سنين كم كان حزيناً في جلسته تلك) أمّي تناديه بعد أن خلعتْ نظّاراتها الطّبيّة المقرّبة، تترك غزل الصوف قليلاً. تحشره بجانبها على الكنبة وسنّارتا الغزل مشبوكتان به... تطلب منّي أن أناديه. أضيء نور الحجرة، فيصرّ عينيه، وفوقه هالة من الدّخان لا تبرح، أقول له: «إمّك بدها إياك» فيردُّ مبتسماً: «إمَّك لحالك». يصمت قليلاً ثمّ يقول: «طيّب... قلْ لها أنا جاي». لحيته نابتة في غير انتظام، وشفتاه مزرقّتان من أثر التّدخين. بجانبه على الأرض عدد كبير من الاسطوانات مركونة بالطّول على الحائط، اشترى غالبيّتها أيّام دراسته الّتي لم تتمّ. تشدهني صور العازفين عليها. سودٌ منتفخو الأشداق، في أفواههم آلات نفخ نحاسيّة، وأصابعهم ملأى بالخواتم، أحدهم أضحكتني صورته كثيراً أوّل مرّة، آلته الغريبة بوقها يرتفع لأعلى وكأنّما هو مطعوج في حادث، وفمه المنتفخ يتّسع لي كاملاً. سألت أنني عن اسمه فقال لي: ولم أحفظه... أظنّه قال كالسبي (سأعرف ـ فيما بعد ـ أن اسمه ديزي جيلسبي، وأنّ أخي يحبّه كثيراً هو وباركر وكولترايْن، وأنّهم جميعاً عازفو جاز متميّزون أحببتهم وسأحبّهم وأخي حتّى آخر العمر). أبي يناديني من غرفة النّوم، وهو متمدّد

كعادته ـ في ذلك الوقت ـ على سريره. يسألني وهو يقلب صفحة الكتاب الّذي بين يديه: «حضّرت دروسك لبكرة؟» فأردّ بالإيجاب، يتابع سائلاً: «حفظت السّورة المطلوبة؟.... إذا حفظت، جيب أصحّ لك». آتي بكتاب الدّين بعد آن ألقي نظرة أخيرة على الصّفحة المفتوحة، أعطيه إياه فينظر في الصّفحة ويغلقها على إصبعه. أتلكّأ قليلاً، فيقول لي: «مالك إقرأ!! أنا حافظها». فأقرأ محاذراً الخطأ، متبعاً قواعد التّجويد الّتي تعلّمتها حديثاً؛ «... صدق الله العظيم» فيقول من بعدي مؤمّناً: «صدق الله العظيم... عفارم... خذ» ويعطيني الكتاب. أضعه في حقيبتي المدرسيّة، وأستل منها دفتر مذكّراتي. أجلس في السّرير موهماً نفسي أنّي بصدد كتابة قصيدة جديدة، قصيدة غزليّة سأذكر فيها ولهي بابنة الجيران، سأكنّي عن اسمها باسم آخر، بأي اسم، الاسم لا يهمّ كثيراً، وسأختار قافية سهلة كي أطيل، وسأقيس كلّ بيت بالمسطرة أو أعدّ الكلمات والأحرف، ستكون رائعة ومتقنةً كما أريد (أكاد أذكر إلى أيّ مدى كانت عواطفي متّقدة وسيّالة، أنا عاطفيّ درجة أولى. أعلم أنّي ميّال إلى التّفاصيل بطبعي، لكنّي لم أكتب وقتها إلاّ عن العموميّات. ربّما بدافع قراءتي المتواضعة لشوقي الّذي أطلعني عليه أبي، ربّما بدافع الذّائقة الّتي اختارت الأشعار في كتابي المدرسي... ربّما... لأنّي كتبت ما لا أريد وأعجبني في ذلك الحين). وحدي والنّمل الّذي التمّ عليّ وتسلّق جسمي، وحده مرتخياً في يدي، جرحه الغائر الجافّ يستفيق، أخي الأوسط يعتدل من على البلاط، ظهره العاري وحبيبات ثلاث تورمت وانفثأت وتورّمت وانفثأت ولطّخت بلاط الحجرة حيث تراخى قليلاً. الجرح الغائر ينبض، ويفور الدّم المتجلّط مختلطاً بآثار الحرق النّاري، يفيض في يدي ويسيل منقّطاً على الأرضيّة. يمسح أخي بلاط الحجرة بالخرقة المبلولة، أمشي على الرّمل فينغرز الحذاء الأسود اللمّاع، أمسحه بيدي دون فائدة، ياقة القميص منشّاةٌ وبنطالي الرّمادي كَسْرَتُهُ كحدّ السّيف، والمدرّسة تقترب رويداً. السّاعة السّادسة والنّصف صباحاً وفي عيني نوم قوي، وقذى يستعصي على الماء ويغري الأصابع بإزالته. شاهدتها وهي تنزل من الدّور الثّالث في عمارتنا، مريولها المدرسي والقميص الأبيض الموسلين، ولمّة الشّعر بغدائره الملتفّة وكأنّما هي مشدودة على قلبي. مريولها الأزرق محبوكٌ على الصّدر، وتلك النّظرة المكتفية الّتي تقول كثيراً، مريولها الأزرق وتصعد باصها المدرسيّ، مريولها الأزرق ووحدي أقطع الشّارع فلا ألتفت يمنةً أو يسرةً. أمّي تعدّ لي كوب اللّبن الخضيض، إسهال صباحي كعادتي أيّام الامتحانات تقول لي: «إيش رح تعمل في التّوجيهي!» أخي الأوسط يصحو متثاقلاً، رأسه مصدع، ونوبة سعال متواصل، والشّعر مهوش وسابل على الجبين بلا نظام. يحكّ بطنه بحركةٍ آلية فترتفع فانلّته البيضاء وتبدو سرّته، يقول لأمّي: «اعملي لي قهوة خلّيني أصحصح» فتأتيه بكوب الحليب السّاخن، لكنّه يقول كلمة واحدة بإصرار «قهـو..ة». ألمح بجانب السّرير رواية لم أرها من قبل. أسأله عن اسمها فيقول: «مش أخذت إنجليزي السّنة الماضية والسّنة!.» فأشير بهزّة رأس خفيفة موافقاً. يقول لي: «إقرأ ورّينا شطارتك» أقرّبها منّي وأقرأ «ذا... الجي والإتش سايلنت مش هيك! ذا... لايت هاوس.. فير... فيرجين.. فرجينيا وولف»، فيقول متثائباً: «مضبوط.. هيك شاطر ليش بيحكوا العكس!» بدعابة منه وبابتسامة عدم رضا على وجهي. صوت «فريد» في الرّاديو الكبير، رفعته أمّي لتسمعه في المطبخ، وأخي لبس بابوجه واتّجه نحو الشّرفة البرّانيّة المتّصلة بالدّرج الحديدي الاحتياطي، معه فنجان القهوة وبين شفتيه سيجارته الأولى ذلك الصّباح. قال لأمّي وهي تناوله القهوة: «كيف بتحبّيه؟» فاستفهمت أمّي: «مين!!» فأجاب: «فريد.. مالوش شفايف». ضحكت وضربته بحنوّ على يده، فضحك هو الآخر ومضت. الدّم في يدي منسرب من الجرح الغائر، والرّيش أسود محروق، فانيلّة أخي مبقّعة بالدّم؛ جافّ ومتلبّد. الرّيش محترق نازف والجسم تململ قليلاً. الدّخان يصعد من السّيجارة المشتعلة، والإصبعان الوسطى والسّبابة مسودّتان في موضع الإمساك، الرّيش الأبيض والرّيش الأسود والرّيش الرّمادي، الجسم الصّغير النّاحل في يدي. أخي والنّمل يصعد قدمه الحافية.

جرس المدرسة أسمعه وأنا سائر تهتزّ حقيبتي على ظهري، كنت قد عرّجت على صديق يهوى مثلي جمع الطّوابع لأودع عنده بعضها وآخذ منه مجموعتي. قلت له «ليش مش لابس؟» فقال لي بعد أن أغلق باب حجرته: «ما بدّي أروح... ضحكت على إمي حكيتلها مفلوز». ألقي بحقيبتي من وراء السّور الخلفي للمدرسة، أبدأ بالتسلّق، أعرف أنّ الملعب التّرابي خال من الطّلبة والمدرّسين، فالكلّ مصطفّ في الطّابور. هذه أفضل طريقة لتجنّب قلّة القيمة والعصيّ الصّباحيّة اللاّسعة، رائحة البحر القريب، وأصوات الطّيور البحريّة الزّاعقة أكثر حدّة، مدرّس اللّغة العربيّة الّذي يبصق ويتفتف دون ضوابط بسبب طقم الأسنان الاصطناعيّة بدا معزولاً حين ترك الطلاّب أربعة مقاعد أولى حتّى يأخذ راحته، مدرّس اللّغة الإنجليزيّة ببدلاته «الكاروهات» الغريبة، مدرّس العلوم منكوش الشّعر، جاءنا مرّة بفردتي حذاء كلّ واحدة بلون، مدرّس الحساب ذو الصّوت المبحوح واللّسان الزّفر، مدرّس التّاريخ الّذي يشبه هتلر بشاربه الخنفسي، مدرّس الدّين ذو الدشداشة «الميني جيب»، الدّم النّافر على شفّتي الّتي تورّمت ولم أعد أحسّها كما كانت في مكانها. لا أحبّ العراك لكنّهم يحبّونه، عيني مزرقّةٌ والقميص الأبيض بلا أزرار ممزّق من عند الجيب ولم يعد أبيض، قطرات الدّم الّتي لطّخته أفزعت أمّي، رغم أنّي حاولت الزّوغان منها، قالت لي بحزم: «مين ضربك؟ إحكي» قلت لها إنّي وقعت على الدّرج في المدرسة، لم تقتنع، هربت إلى الحمّام كان الجرح في شفتي قد توقّف نزفه، لكنّ النّبض فيه قويّ ومؤلم. سمعتها من وراء الباب تبرطم: «لمّا يجي أبوك رح أحكيله» بدا ذلك الأمر مزعجاً، لكنّني لا أستطيع الهرب من سؤاله: «ليش عينك وارمة؟». الدّم في يدي، وفي يدي الجسم النّاحل الهضيم، في يدي ريشاته بيضاء مسودّة، رماديّة مسودّة،

سوداء وفي طرفها مشحة بيضاء. الجرح الغائر ينبض، والسّاقان طويلتان جرداوان، أخي الأوسط يعد الحقيبة وأمّي بجانبه تبكي وتمسح دمعها وتسرع خارج الغرفة (تلك عادتها عندما تودّع واحداً منّا.. خاصّة نحن الذّكور... تظلّ تبكي وتبكي طول اللّيل في فراشها ولا تنام حتّى يطلع الضّوء) سيسافر إلى أمريكا قالت أختي الصّغيرة: «رح يكمّل دراسته». الرّيشات في يدي والدّم الجافّ، لكنّ الجسم النّاحل الهضيم تحامل على جرحه الغائر، تحامل على يدي قليلاً، نفض الجناحين وكأنّما كاد من قبل أن يفقد الأمل، وحيداً على الشّرفة، عيناي تفيضان، والضّوء الباقي في الأفق يسيل أحمر قانياً.

الأردن

القنـــاع

وليد زهدي

صباحاً أفاق. نزل من «عليّته» مغمضاً. تمطّى. نظر باتّجاه الدّفء المنبعث من الشرق. تفتّحت عيناه. شاهد كسوفاً بنفسجياً غيّب نصف رأسه. أُغلقتْ عيناه. تمتم متسائلاً:

ـ أشاهدتُ شمساً؟!

أسترجع حلماً لحوحاً لم يتكدَّسْ فوقَه الواقع. قال متذكّراً:

ـ هي الشّمس العاكسة في الحلم!

تحسَّسَ رقبته. وجدها منتصبة تحمل الرّأس.

صاح: «شام»؟.. «شام»؟

تلقّى صوتاً! ـ «مياو...» من بعيد.

لمح «لون» يركض لاعباً خلفَ شام، والشّعر المسترسل أمام عينيه، يبطئ جريَه. يهرّ بصوت مخنَّث. يتوقّف الكلب فجأة. يترصَّد. يخطف شيئاً كان يلعب به «شام». يُسرع ويدفع هذا الشّيء إليه. محص الشيء:

«قناع»؟!

لمسه وأعاد..:

«ناعم طريّ كبشرة آدمية!».

وضع القناع بمواجهته تماماً. خيّل إليه أنه يتكلّم. انخشَّ فيه مرتعشاً: «مريع!».

وكد في حدقتيه:

«يتغامزان؟!».

قذفه بعيداً. عَلِق بأغصان شجرة جمّيز معمّرة تتوسّط بستانه. تصوَّر أنّه يقهقه. قال:

«لم أرَ قناعاً مثله في حياتي قط! ماذا يشبه؟... ماذا يشبه؟. وجدتها: شيطان فاوست»!

استدعى «شام». لبّى مجيباً. تفرّس فيه. شاهده يلبس القناع. أغمض. فتّح. تذكّر أن بعضاً من هذه المقاطع كانت متضمنة «حلم ليلة البارحة». ماله وللأحلام..؟!

الصيف قتّال. فليذهب إلى السّباحة.. إلى أين؟ إلى أين يا «سديم»؟.

ـ «الشيراتون».

ـ ولكن مع من؟

وضع معادلة سريعة:

«سوزي» تحت تصرّفها سيّارة ذات لوحة خضراء. هي تخطّط لإيقاعه، وفي حسابها البستان.

هناك تعرّى. مرَّ بأصابع كفّيه على صدره الفتيّ. هفّت نفسه إليها عندما ارتسمت في البكيني. زرع في مخيّلته: «سوزي» ثائرة الثديين. بدلال رآها تلوّح إلى فتاتين في الجانب الآخر من حوض السّباحة، تحومان حول شيخ أو أمير. شعر بدفء الصّباح الرّطب. أجسام المراهقات البرونزية كانت تعكس أحلامه. وقف على طرف الحوض.

تفرّس في الماء. أشعّة الشّمس خطفت بصره. اهتزّ سطحُ الحوض تحت أشعّة شمس بنفسجية. انتفض هرُّه «شام» من داخل الحوض كمارد وعليه القناع. تراجع للخلف مترنّحاً. «سوزي» تصيح:

«ما بك؟. أخِفتَ الماءَ البارد؟!».

أعاد توازنه.. فرك عينيه.. أخذ وضعيّة الغطس. صوت يناديه:

ـ «سديم».. «سديم»!.

ينكمش عن قذف نفسه. عرف المنادي. هو السمسار.. يتقدّم منه. نحّاه جانباً. أسرّ إليه بأمر، وهو يشير إلى الطّرف الآخر من حوض السّباحة حيث يجلس... اختلس نظرةً سريعة. لمح مظلّاتٍ ثلاثاً متقاربة، تحتها شيخ أو أمير بلحية مرسومة بعناية تتركّز تحت الذقن والشّفة السّفلى، وتخفي سحنته نظّاراتٌ أرجوانيّةٌ عاكسةٌ وعريضة، وقد استلقت على جسمه عباءة حريرية بيضاء، فوق رداء